التشيع بين الاعتناق والتأثير

فى شعر عمارة اليمنى

(٥١٦ هـ ٠ ٥٦٩ هـ)

١١٢١ م ٠ ١١٧٤ م

دكتور / أحمد سيد محمد

تعرضت مصادر الأدب الشيعى للاختفاء والإتلاف والضياع على أيدى غلاة الشيعة ومتعصبي السنة ، وبرابرة الصليبيين ، وغوغاء المصريين ، وحوادث الزمان فقد غلف الشيعيون مذهبهم بالغموض ، وأدى ذلك إلى سوء فهم أدبهم واتهام بعض شعرائهم بالكفر(١) وخلال الأزمة المستنصرية بمصر بيعت أغلفة الكتب المذهبة والمفضضة لتدفع فى رواتب الجند الثائرين(٢) ثم امتدت يد الغوغاء إلى الكتب المجلدة فنزعت أغلفتها ، وصنعت منها النعال والأحذية وألقت بما بين دفتيها إلى عالم الضياع(٣) .

وعندما عاد إلى خزانة الكتب —بقصور الفاطميين— سالف مجدها لم تلبث أن آل أمرها الى رجل عسكرى فعاودتها النكسة بسبب الجهل والتعصب السنى فبيع بعضها وأحرق الآخر(٤) .

---

(١) من ذلك ما أثير حول قول الشاعر « ابن هانئ الاندلسى» مادحا الخليفة « المعز لدين الله الفاطمى » .

ماشئت لا ما شاءت الاقدار فاحكم فأنت الواحد القهار

وقد ناقش هذه الفكرة الدكتور محمد كامل حسين فى كتابه (فى أدب مصر الفاطمية) القاهرة ، ١٩٦٣ ، ص ٢٩

(٢) تاريخ مصر لابن ميسر ، تحقيق«Massé»، القاهرة ١٩١٩ م ، ص ١٦

(٣) الخطط للمقريزى ، جـ٢ ، القاهرة ١٣٢٦ هـ ، ص ٢٥٤

(٤) أسند صلاح الدين الأيوبى أمر القصر الفاطمى « لبهاء الدين قراقوش » ، انظر الروضتين ، جـ ١ ، ص ٤٨٨

ولما شرع كاتب سنى يسجل أعمال شعراء المائة السادسة للهجرة فى موسوعته (خريدة القصر وجريدة العصر) أسقط عمدا — باعترافه الشعر المتعلق بالمذهب الشيعى ، ولم يبق انا منه غير النذر القليل(١) .

وكان للصليبيين دورهم فى القضاء على جزء كبير من التراث الشيعى ، فقد أحرقوا جميع مكتبات طرابلس بالشام غداة احتلالها سنة ٥٠٢هـ.(٢) وربما سلم القليل من هذه الكتب إبان تلك الأزمات ، وفر يحتمى بمناطق بعيدة عن مسارح النكبات ، لكن لعنة المغول كانت لها بالمرصاد(٣) .

ومن ثم ضاع الكثير من مصادر الفكر والأدب الشيعى المدون بأقلام أصحاب المذهب ، وبقى ما كتبه عنهم خصومهم من السنيين(٤) .

وقد لاحظ الدكتور (برنارد لويس) فى دراسته أصول الاسماعيلية أن معظم الدراسات التى تناولت هذا الموضوع استقت مادتها من مصادر السنيين

فإذا أخذنا بعين الاعتبار ماذكرناه من الأسباب التى أدت إلى ضياع الكثير من مصادر الأدب الشيعى ، ولاحظنا أن النسخة الموجودة من ديوان عمارة نقلها رجل مالكى المذهب ، وأن عنوانها مختار من الديوان ،

---

(١) انظر خريدة القصر وجريدة العصر ، قسم شعراء مصر للعماد الاصفهانى ، ج ٢ تحقيق شوقى ضيف وآخرين ، القاهرة ١٩٥١ ، ص ٣٠ ومقدمتها للدكتور شوقى ضيف ، ص ن .

(٢) النجوم الزاهرة فى أخبار مصر والقاهرة لابن تغربردى ، ج ٥ ، ص ١٨٠ .

(٣) السلوك لمعرفة دول دول الملوك ، للمقريزى ، تحقيق : مصطفى زيادة ، ١٩٥٧ م . ج ٢٠ ، ص

(٤) أصول الاسماعيلية ، د . برنادر لويس — مترجم

Oumara du Yeman. Sa Vie et son aeuvre, H. Derenbourg Paris, 1897.

وقد جمع فى مجلد مختارات من شعر عمارة وكتاب النكت العصرية فى أخبار الوزارة المصرية ، ويعنى بالنكت اللطائف أو النوادر ، وهى ما عبر عنها المحقق بكلمة Finne راجع هذه المادة فى :

LA PETIT ROBERT, PARIS. p. 710.

وأن محققه عثر على بعض أجزائه بعد أن كان باحث آخر أخرجه فى صورة ما(١)، فهل يمكن القول بأن هذه المصادر كافية وصادقة فى تصوير القضية التى نحن بصددها ؟ وهل يمكن الاعتماد عليها فى الأحكام والنتائج التى نصل اليها ؟

لاشك أن ذلك يدفع الدارس إلى التروى حتى يعيش مع تراث الشاعر، ويتعرف على شخصيته، فلا يلبث أن يطمئن إلى سلامة المصادر فى هذه القضية لأن شخصية الشاعر أملت عليه موقفاً خاصاً جعله بعيداً عن الأسنة المشرعة على العماليق من غلاة المذهب الشيعى ودعاته المرموقين .

وربما يقوى يقيننا — أيضاً — أن تراثه سلم من عوادى الزمان فوصل إلينا ، وأن ناسخه عاش فى القرن العاشر الهجرى بعد أن هدأت حدة الصراع المذهبى وأن الاختيار قد تم على أساس غير مذهبى ، سواء من الشاعر أو الناسخ ، وأن العثور على بعض أجزائه قضية معروفة فى تراثنا العر الذى تبدد فى مختلف أرجاء المعمورة .

(٢)

وقد ولد نجم الدين أبو محمد عمارة بن أبى الحسن الحكمى اليمنى(٢) عام ألف ومائة وإحدى وعشرين ميلادية تقريباً(٣). وقد حدثنا عن أسرته ونشأته الأولى فى كتابة (النكت) فقال : « يرجع نسبى إلى قحطان ثم الحكم ابن سعد العشيرة المذحجى أما الوطن فمن تهامة باليمن فى مدينة يقال لها مرطان من وادى وساع جنوبى مكة وبها المولد والمربى ، وأهلها بقية العرب فى تهامة لأنهم لايساكنهم حضرى . . ولذلك سلمت لغتهم من الفساد(٤) » .

---

(١) H.Derenbourg: Oumara du Yeman Sa Vie et son aeuvre, Paris, 1979.

(٢) ترجم له بايجاز الدكتور أحمد بدوى فى كتابه الحياة الأدبية فى عصر الحروب الصليبية بمصر والشام ، وذكر فى هامش ص ١٦٣ أكثر من عشرين مصدراً لدراسة الشاعر .

(٣) حدد هذا التاريخ المستشرق الفرنسى «هرتويغ درنبرج فى بحثه عن حياة الشاعر وكتبه .

(٤) النكت العصرية ، عمارة اليمنى ، س ٢٨ .

بدأ عمارة حياته التعليمية فى تلك البيئة العربية الخالصة ، فأجاد اللغة إجادة مكنته من السلاسة والطلاقة التى تبدو فى أسلوبه الشعرى . وأسرة الشاعر — كما وصفها — أسرة تمتعت بالعلم والثراء والرئاسة ، ولذلك حرصت على إتمام الشاعر دراسته فزودوه بالمال وبعثوه إلى زبيد(١)سنة ٨٥٣١ ، وأقام بها عدة سنوات يشتغل بالتعليم والتعلم وفيها تفتحت مواهبه وبدأ ينظم الشعر . وأتيح له أن يتعرف على والدة ملك زبيد ، واشتغل — فى مالها — بالتجارة ،وأخذ يتنقل بين عدن وزبيد وعيذاب ومكة متاجراً،فذاع صيته وأثرى ثراء جما حتى وصفه أحد معاصريه بقوله: «أنت خارجى هذا الوقت وسعيده ، لأنك أصبحت تعد من جملة أكابر التجار وأهل الثروة ومن أعيان الفقهاء الذين أفتوا ودرسوا غيرهم ، ومن أفضل أهل الأدب منزلة وأفصحهم عارضة(٢) .

ولم تصف أيام عمارة طويلا فى « زبيد » ، فقد غادرها فاراً إلى مكة سنة ٥٤٩هـ، إثر مكيدة دبرها له شانئوه مستغلين اضطراب الظروف السياسية ، وعلاقته ببعض رجال السلطة فى عصره ، ثم لم يلبث أن اتصل بأمير الحرمين (قاسم بن هاشم) الذى تولى منصب الإمارة فى العام الذى قدم فيه عمارة مكة ، وتوثقت الصلة بينهما ، فأسند إليه الأمير منصب السفارة عنه والرسالة منه إلى الدولة المصرية .

وفى مصر بدأ الشاعر مرحلة جديدة تميزت بالخصوبة ، وعلى عادة الشعراء فى عصره توجه إلى قاعة الذهب فى قصر الخلافة الفاطمية ، وألقى بين يدى الخليفة الفائز ووزيره طلائع بن رزيك قصيدة قال فيها :

فهل درى البيت أنى بعد فرقته ماسرت من حرم الا إلى حرم
حيث الخلافة مضروب سرادقها بين النقيضين من عفو ومن نقم(٣)

---

(١) مدينة باليمن أنشئت أيام المأمون بازاء ساحل باب المندب معجم البلدان ج٤ ص٣٧٥

(٢) النكت العصرية ، عمارة اليمنى ، ص ٢٨

(٣) النكت العصرية ، عمارة اليمنى ، ص ٣٢ ، خريدة القصر ، قسم شعراء مصر ، للعماد الاصفهانى ، تحقيق : شوقى ضيف وآخرون ، ١٩٥٣ ، ص ٢٥٨ ، كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية ، لأبى شامه المقدسى ، تحقيق : محمد حلمى أحمد ، القاهرة ، ١٩٥٦ ، ص ٢٢٥

وكان للدولة الفاطمية تقليد معروف مع الشعراء نال شاعرنا منه سهما وافرا ، والتقى بكبار الشعراء والأدباء فى عصره من أمثال الشيخ الجليس أبى المعالى بن الحباب والموفق بن الخلال صاحب ديوان الإنشاء، وأبى الفتح محمد بن قادوس ، والمهذب بن محمد الحسن بن الزبير ، وهم طائفة وصفهم عمارة بقوله : « وما واحد من هؤلاء إلا ويضرب فى الفضائل النفسانية بأوفر نصيب ، ويرمى شكالة الأشكال فيصيب(١) » كما التقى عمارة بشيخ عصره الكاتب الشاعر « القاضى الفاضل » .

وكما جالس عمارة كبار رجال العلم والأدب ، خالط رجال السيف والسلطة فى مصر وخطب وده الكثيرون ، وجرت عليه الرواتب والخلع .

عاش عمارة فى مصر فترة حاسمة من تاريخها شهدت حدة الصراع بين الوزراء وتطاول الطامحين عليها من المسلمين والصليبيين ، واحتضار الخلافة الفاطمية وميلاد الدولة الأيوبية . وكان لهذه الأحداث صداها فى شعره : فعندما تطاولت يد الصليبيين إلى مصر ، وأحس الشاعر بزوال مجده مع مجد الفاطميين ووزرائهم ، راح يتضرع إلى الله أن يحرس مصر ويحفظ بها ملة الإسلام .

يارب إنى أرى مصراً قد انتهبت ... لها عيون الأعادى بعد رقدتها
فاجعل بها ملة الإسلام باقية ... واحرس عقود الهدى من حل عقدتها(٢)

ولم تكن ملة الإسلام التى يريد الشاعر بقاءها فى مصر غير ملة ممدوحيه من الخلفاء الفاطميين ووزرائهم الذين بقى الشاعر محافظاً على مكانته عندهم على الرغم من تقلب الأمور ، واضطراب الفتن :

---

(١) النكت العصرية ، عمارة اليمنى ، ص ٣٥

(٢) ديوان عمارة اليمنى ، تحقيق : هرتويغ درينبرغ ، باريس ، ١٨٩٧ ، ص ١٩٠

وقضى عمارة أيامه فى مصر يتكسب بشعره ويصرف له الجارى كواحد من الشعراء حتى ضاق ذرعاً بذلك فطلب من الوزير (شاور) أن يعفيه من ذلك فأعفاه . فشكره قائلا :

ومحوت من وجهى مواسم صنعة ومعيشة كان اسمها يزرى بى(١)
أصبحت شاكر نعمة لاخدمة أقضى يد المفروض بالمندوب

وعاصر عمارة من الخلفاء الفواطم الفائز والعاضد ، وزال مجده بزوال دولتهم ، وراح ضحية التبديل السياسى والمذهبى بعد استيلاء الايوبيين على الحكم ، فقتل وصلب بعد أن نسبت إليه جريمة اشتراكه فى مؤامرة ضد الحكم الأيوبى .

ويروى صاحب الروضتين أنهم مروا به على شط الخليج ، أمام منزل صديقة القاضى الفاضل ، وطلب مقابلته فمنعوه من ذلك فسجل آخر بيت فى حياته :

عبد الرحيم قد احتجب ان الخلاص من العجب(٢)

وكانت نهايته سنه ٥٦٩ هـ(٣) ، ١٦ أبريل سنه ١١٧٤م(٤) .

وقال فيه تاج الدين الكندى (٦١٣) هـ

عمارة فى الإسلام أبدى جناية وبايع فيها بيعة وصليبا
وأمسى شريك الشرك فى بغض أحمد فأصبح فى حب الصليب صليبا
وكان خبيث الملتقى إن عجمته تجد منه عودا فى النفاق صليبا
سيلقى غدا ما كان يسعى لأجله ويسقى صديدا فى لظى وصليبا(٥)

---

(١) النكت العصرية ، عمارة اليمنى ، ص ٨٦ ، ٨٧ .

(٢) الروضتين ، جـ١ ، ص ٥٩٦ ، راجع تفاصيل هذه الفتنة فى كتاب السلوك وفى معرفة دول الملوك للمقريزى ، تحقيق : د . مصطفى زيادة ، ١٩٥٧ ، ص ٥٣ وما بعدها .

(٣) الروضتين ، جـ ١ ، ص ٥٥٤

(٤) Oumara du Yeman, Sa vie et sonaeuvre, H Derenbourg Paris, 1897.

(٥) الروضتين ، جـ١ ، ص ٥٦٦ ، وقد علق « أبو شامة » على هذه الأبيات بقوله : الصليب الأول النصارى ، والثانى بمعنى مصلوب ، والثالث من الصلابة والرابع ودك العظام وقيل هو الصديد أى يسقى مايسيل من أهل النار وتعوذ بالله .

— ٣ —

وقد صور صاحب كتاب «النجوم الزاهرة» انتشار المذهب الشيعى بمصر فى أخبار سنة ٤٢٨ هـ بقوله أصبحت السنة والإسلام غريبا(١) .

ومعنى هذا أن الفترة التى عاشها عمارة فى مصر ، وهى قرابة عشرين عاماً كان المذهب الشيعى فيها راسخا ومنتشرا ، فلاغروأن عمارة كان عليما بالمذهب علما مكنه من الحكم على الآخرين ، فهو يقول عن المكرم ابن الزيد ، كان المذكور من الغلاة المتعالين فى مذهب من غير علم(٢).

ويقول عن الصالح : فما هو عليه فرط العصبية فى المذهب ، ولوشرحت هذه الواحدة لكثرت وطالت واتسعت وعالت(٣) .

ويؤكد علمه الدقيق بالمذهب ماسنراه من إشارة صريحة أو خفية فى شعره تضمنت أصول المذهب الشيعى وشرائعه وقد أثار إخلاصه لخلفاء مصر الفاطميين ووزرائهم طمعهم فى دخوله مذهبهم كما صرح له بذلك صهر الملك الصالح وقال له :

« أعلمت أن الصالح طمع فيك أن تصير مؤمنا من يوم دخل الأشتر ابن ذى الرئاستين فى المذهب ؟ ولولا طمعه فيك أن ترجع إلى مذهبه ماسامح ابن ذى الرئاستين بدرهم»(٤) .

ولعل طلائع بن رزيك أراد أن يستميل الشاعر بحضوره مجالس الدعوة لكن عمارة أعلن رفضه اعتناق المذهب، وناقش بعض عقائده ، وهاجم بعض شرائعه فقد لزم الصمت فى مجالس الوزير طلائع حين جرى من بعض الامراء ذكر السلف ، ثم قام عمارة واعتزلهم وصارح الوزير بقوله :

---

(١) النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ٣ .
(٢) النكت العصرية ، عمارة اليمنى ، ص ٤٥ .
(٣) المرجع السابق ، ص ٤٨ .
(٤) المرجع السابق ، ص ١٢٦ . وأكد ذلك العرض العماد الاصفهانى .

كرهت ماجرى فى حق السلف وأنا حاضر فان أمر السلطان بقطع ذلك حضرت وإلا فلا ، وكان لى فى الأرض سعة وفى الملوك كثرة فعجب من هذا وقال سألتك بالله ماالذى تعتقد فى أبى بكر وعمر ؟ قلت : أعتقد أن لولاهما لم يبق الإسلام علينا ولاعليكم ومامن مسلم إلا محبتهما واجبة عليه ، ثم قرأت قوله تعالى «ومن يرغب عن ملة ابراهيم إلا من سفه نفسه» فضحك الوزير (١)

كما يحدثنا عن موقف له مع الأمير سيف الدين صهر الملك الصالح طلائع بن رزيك حول مسألة من مسائل الفقه الشيعى .

قال عمارة : فأذكر أنه (الأمير) توضأ ومسح رجليه ولم يغسلها فتناولت الإبريق فسكبت الماء على رجله فجذبها وهو يضحك فقلت له : إن كان الحق معكم فى مسح الرجلين يوم القيامة فما نعطى ولا نعاقب على غسلهما وإن كان الحق معنا فى غسل الرجلين خرجتم من الدنيا بلا صلاة لأنكم تتركون غسل الرجلين وهو فرض (٢)

وظل عمارة — على الرغم من ولائه لخلفاء الشيعة ووزرائهم — يعد مذهبهم دينا آخر غير دين أهل السنة .

يقول مهنئا الوزير شاور بعد عودته من مدينة بابيس ، وكانت تحت تحت أيدى جنود نور الدين ، فغادرها بعد أن ضيق الصليبون والمصريون الحصار عليهم واعتبر الشاعر أن هذا نصر لشاور :

جمعت لك الأمم الثلاث* فسستها حتى كأن لم تختلف
خلصت كل قبيلة من ضدها لما التوت وتعقدت أشطانها (٣)

---

(١) المرجع السابق ، ص ص ٤٤ ، ٤٥ . (٢) عمارة اليمنى ، ص ١٢٦ .
(٣) النكت العصرية ، عمارة اليمنى ، ص ٣٦٩ .

* الامم الثلاث هنا الغز ، والافرنج ، وأهل مصر ، فقد جعل من الستين (أنصار نور الدين ، والصليبيين ، وأهل مصر (الخلفاء الفاطمين) أما ثلاثا متقابلة هذا التفسير نقله محقق الديوان من هامش احدى المخطوطات ، ويؤكد هذا التفسير ماشرحه عماره نفسه فى موضوع آخر :

ولقد دفعت إلى ثلاث نوائب كادت تشيب لهولها ولدانها
فعصابة غزية غادرتها وأجل ماترجوه منك أمانها
وعصابة روحية عاشرتها فتأدبت وتهذبت أذهانها
وعصابة مصرية بك فوق البرايا راجحا ميزانها

ومما فسرلنا ذلك الفهم القائم على التقابل البين بين المذهبين عدم اعتناق الشاعر المذهب الشيعى رغم تهيؤ الأسباب الداعية لذلك .

وثمة سبب آخر ، وهو أن الشاعر لم يكن مضطراً — فى علاقته بالفاطميين — إلى تغيير مذهبه ، وتغيير العقيدة ليس أمراً هينا على النفوس ولعل هذه الصعوبة هى التى أشار إليها الشاعر بقوله :

لو لم أكن على بصيرة من مذهبى لمنعتنى النخوة من التنقل (١)

يتأثر الأديب بتيارات الفكر فى عصره ، وقد اتخذ الفاطميون فى مصر من الأدب عامة والشعر خاصة أبواق الدعاية لنشر مذهبهم فأضافوا إلى الشعر العربى جديداً فى المعانى والصور والكلمات . ومعظم أشعار عمارة تدور حول الأئمة ووزرائهم وأعوانهم الرسميين ، فبالوعى راح عمارة يردد المأثور من التراث الشيعى فى الشعر العربى شكلا ومضمونا ، حتى ينال الحظوة والهبات من شيعة المذهب . وباللاوعى ترددت هذه الآثار فى حديثه عن غيرهم .

— ٤ —

وحول نسبته الفاطميين إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، تضاربت آراء الباحثين * وهم على اختلافهم فريقان أحدهما يقول بصحة النسب والآخر يرفض . وبدهى أن أتباع المذهب يؤكدون صحة النسب ، ويردده شعراؤهم .

وقد كرر عمارة فى شعره هذه الدعوى إذ يقول :

لايبلغ البلغاء وصف مناقب ... أثنى على إحسانهـا التنزيل
إن الرسول أبوكم من دونها ... فمن الذى منها أبوه رسول

ثم يقول مخاطباً الخليفة العاضد :

لما برزت إلى المصـلى معلنا ... وشعارك التكبير والتهليل (٢)
وسللت غـرب فصاحة نبوية ... شهدت بأنك للنبى سليـل

---

(١) النكت العصرية ، عمارة اليمنى ، ص ١٢٧ .

* أغفل د . محمد كامل حسين الحديث عن هذه القضية بسبب اضطراب المؤرخين فيها ، أنظر هامش ص ٢٢ . فى أدب مصر الفاطمية . وقد تعرض الدكتور برنارد فى كتابة (أصول الاسماعيلية) لهذه القضية بالتفصيل ، أنظر ص ٨٠ وما بعدها .

(٢) ديوان عمارة اليمنى ، ص ٣٠٦ ، وأنظر نموذجا آخر ، ص ٦٢ . النكت .

وينطلق الفاطميون من صحة نسبهم إلى الرسول (صلى الله عليه وسلم) إلى القول بوصايته لعلى بالخلافة من بعده ، ويذكرون قصة الغدير وهى أن النبى (صلى الله عليه وسلم) بعد أن أدى حجة الوداع ونزل عند (غديرحم) فى اليوم الثامن عشر من ذى الحجة . هنا لك أنزل عليه قوله تعالى :«يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك ، وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس » .

فذهب الشيعة إلى أن النبى الكريم صدع بأمر زيد ، وأمر بالصلاة حتى إذا ما انتهى منها أخذ بيد على بن أبى طالب فقال : « ألستم تعلمون أنى أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟قالوا: بلى.قال ألستم تعلمون أنى أولى بكل مؤمن من نفسه ؟ قالوا : بـــلى . قال : من كنت مولاه فعـــلى مولاه ، اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه وانصر من نصره، واخذل من خذله،وأدر الحق معه حيث دار » وذهب الشيعة إلى أن ذلك يعتبر نصا صريحا بوجوب اتباع على ولايته ، ومن بعده من ذريته المنصوص عليهم (١) .

ويردد عمارة هذه الأفكار فى مديحه الفائز قائلا :

وَلاؤك مفروضٌ على كل مَسلم وحُبُّك مفروضٌ وأفضل مغنم
إذا المرء لم يكرم بحُبِّك نفسه غَدَا وهو عند الله غيرُ مكرمَ
ورثت الهدى عن نص عيسى بن حيدر وفاطمة لانص عيسى بن مريم
كذلك وصىّ المصطفى فى ابن عمه إلى مُنْجد يوم الغدير ومتهم(٢)

وقد ذهب الشيعة إلى القول بأن لكل نبى وصياً وأن الله تعالى هو الذى يوصى إلى نبيه بإعلان من اختاره وصياً ، فوصى آدم ابنه قابيل ، ووصى

---

(١) راجع الجزء الأول من مسند أحمد بن حنبل ، ص ص ٨٤، ١١٨، ١١٩، ١٥٢، ٣٣٠ والجزء الرابع ، ص ٢٨١ ، ٣٦٨ .

(٢) ديوان عمارة اليمنى ، ص ٣٣٩ .

ابراهيم إسماعيل ووصى موسى هارون ، ووصى عيسى حواريه شمعون فوجب أن يكون لمحمد وصى ، وفى ذلك المعنى يقول عمارة مادحا العاضد :

ولاؤك دين فى الرقاب ودين ... وودك حصن فى المعاد حصين
وحبك مفروض على كل مسلم ... يقول بحب المصطفى ويدين (١)

والقضايا التى رددها عمارة فى كل ما سبق كانت موضع اتفاق بين فرق الشيعة الإمامية ، لكن هذه الفرقة اختلفت حول تحديد شخصية الإمام فذهب الإسماعيليون إلى القول بأن الامامة آلت إلى محمد ولد إسماعيل بن جعفر ثم جاء دور الائمة المستورين وهم (عبدالله بن محمد فأحمد بن عبد الله فالحسن بن أحمد ، ثم أئمة الظهور وأولهم عبيد الله بن المهدى مؤسس دولة الفاطميين (٢) .

كما قالوا بأن الإمامة تنتقل من الآباء إلى الأبناء ، ولا تنتقل من أخ إلى أخ بعد انتقالها من الحسن إلى الحسين ، وقد أولوا قوله تعالى : « وجعلها كلمة باقية فى عقبه » بأن الله سبحانه وتعالى لا يترك العالم خاليا من إمام ظاهر مكشوف أو باطن مستور تنتقل الإمامة بعده من نسل الإمام على (٣) .

ولما كان عمارة يعيش فى بيئته الشيعة الإسماعيلية ، ويمدح خلفاءها فانه يردد أفكارهم وآراءهم حول هذه الدعوى فيقول فى العاضد :

ورثوا الإمامة حاضرا عن غائب ... وتداولوها آخراً عن أول
من ظافر أو فائز أو عاضد ... بنيت خلافته على النص الجلى
أوصى إليك بها ابن عمك بعده ... نصا كما نص النبى على على (٤)

(١) ديوان عمارة اليمنى ، ص ٣٦٢ ، وقد علق د . محمد كامل حسين على هذه الفكرة بقوله : يخيل إلى أن الفاطميين أخذوا هذا الرأى مما جاء فى أنجيل يوحنا فى مواضع متعددة ان شمعان بن يونا هو الذى سماه المسيح بطرس أو صفا وأمره المسيح أن يرعى بعده خرافه أى جماعة المؤمنين فصبغ الشيعة هذه العقيدة بالصبغة الإسلامية . أنظر فى أدب مصر الفاطمية ، ص ٢٤ .

(٢) أصول الاسماعيلية ، د . برنارد لويس ، ص ١٦٠ وما بعدها .

(٣) فى أدب مصر الفاطمية ، د . محمد كامل حسين ، ص ٢٢ ، نقلا عن كتاب المجالس المؤيدية ، ج ١ ، ص ٥ مخطوط بمكتبته الخاصة .

(٤) ديوان عمارة اليمنى ، ص ٣٠٩ ، والشاعر فى بيته الثانى يشير بقوله (النص الجلى) إلى انتقال الامامة فى الأبناء دون الإخوة .

ومفهوم الإمامة — كما لاحظ الأستاذ أحمد أمين — تطور على أيدى الشيعة فأصبحت تعنى معنى روحيا بعد أن كانت تطلق على الرياسة ، وينقل عن كتاب الكافى «للكلينى» وهو من أوثق مصادرهم قول أحدهم : « نحن خزان علم الله ، ونحن تراجمة وحى الله ، ونحن الحجة البالغة على من دون السماء ، ومن فوق الأرض والأئمة نور الله الذى قال فيه تعالى : « فآمنوا بالله ورسوله والنور الذى أنزلنا (١)

وإلى هذا المعنى يشير عمارة فى قوله :

وللإمامة أنوار مقدسة تجلو البغيضين من ظلم ومن ظلم
وللنبوة آيات تنص لنـــا على الخفيين من حكم ومن حكم(٢)

فالشاعر يمدح الفائز بالعدل والهداية ومصدر ذلك علمه الخفى ، فالنور فالنور الإلهى يكشف الظلم الذى يخيم على العقول والقلوب ، ويحقق العدل فيرفع الظلم عن الناس ثم يربط الشاعر بين هذه الصفات والتنصيص فى الخلافة ، وبذلك المنهج يوصل الشاعر أحقية الممدوح فيها ويدعمها .

والعلم فى نظر الشيعة ظاهر وباطن ، فالقرآن الكريم أنزل على محمد بلفظه ومعناه الظاهر للناس ، أما أسرار الدين ، وأسرار التأويل الباطن ، فقد أنزلت على محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) ولكن خص بها عليا وأبناءه من بعده دون غيرهم من البشر ، وأن عليا وأبناءه من الأئمة هم الذين يدلون الناس على هذه الأسرار . واستدلوا على ذلك بآيات من القرآن الكريم(٣)

وإلى ميراث العلم بالباطن يشير عمارة فى مدحه العاضد قائلا :

سجودا فهذا صاحب الركن والحجر ووارث علم النمل والنحل والحجر

---

(١) ظهر الإسلام ، أحمد أمين ، جـ٤ ، ط ٣ ، القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، ص ١١٢ .

(٢) النكت العصرية ، عمارة اليمنى ، ص ٣٣ . ويبدو تأثر الشاعر فى وزن هذه القصيدة وطريقة عرضها بأبى تمام .

(٣) د . محمد كامل حسين نقلا عن عدة محفوظات بمكتبته الخاصة . أنظر هامش ص ٢٥ ، فى أدب مصر الفاطمية .

وهذه الموروثات التى يشير اليها الشاعر لها مدلولاتها الخاصة فى نظر أتباع المذهب اذ اتخذوا من شعائر الحج ، ومن أسماء سور القرآن الكريم رموزا لمعانى خاصة بهم(١).

وقد كانت قضية الإمامة وما يتصل بها محور المذهب الشيعى . ومن هنا راح عمارة يكثر من الحديث عنها فى شعره ، بل ربما فاق حديثه عنها كل مارددده حول غيرها من القضايا . وهو فى كثرة الحديث عنها متأثر بقيمتها وأهميتها فى المذهب . وللشيعة أحكام خاصة بهم فى التشريع وأصوله ، ففقهاء الشيعة لا يأخذون بالرأى ولا بالقياس(٢).

ويلج عمارة إلى هذه القاعدة الأصولية من خلال مديحه الخليفة العاضد حين يقول :

أغنى عن التقليـــد نص إمامة ... والنص يبطـــل عنده التقليد
لاشىء من حل وعقد فى الورى ... إلا إلى تدبيره مـردود (٣)

ولفقهاء الشيعة الاسماعيلية موقف من شهر رمضان إذ لجأوا إلى علم الفلك والحساب لتحديد بداية الصوم ونهايته دون الرجوع إلى رؤية الهلال ، وفسروا قول الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) « صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته » تفسيرا يتفق ومذهبهم فى التأويل ، فقالوا : « انها رؤية استبصار » وكان من عادة الأئمة الفاطميين الخروج للناس لإعلان بداية الصوم(٤).

---

(١) وقد بالغ بعض الغلاة فى هذا التأويل مما جعل الشاعر بشار بن برد يسخر بهم فى مجلس الخليفة المهدى . أنظر ص ٣٧٨ ، جـ١ ، كتاب الأغانى كتاب التحرير .

(٢) فى أدب مصر الفاطمية ، محمد كامل حسين ، ص ٣٠ . وقد استخلص مؤلفه هذا الرأى من كتاب « دعائم الإسلام » للقاضى النعمان بن محمد ، وكتاب المجالس المستنصرية للداعى فقه الأمام علم الإسلام ، وقد أشرت فى هذا المبحث إلى موقف عمارة من قضية مسح الرجلين فى الوضوء ص ٥٠

(٣) ديوان عمارة اليمنى ، ص ١٩٩ .

(٤) يعلق د . محمد كامل حسين على ذلك بقاله : ان رؤية رمضان التى نحتفل بها اليوم جاءتنا من فكرة ظهور الإمام الفاطمى معلنا صوم رمضان . أنظر : أدب مصر الفاطمية ، ص ١٩١ .

وفى ذلك المعنى يقول عمارة :

ولما تراءت للهـــلال بصائر يغطى الهـــوى ابصارها بضباب
وقفنا فهنأنا الصيام بعاضد سناه مدى الأيام ليس بخاب (١)

وقد امتد تأثر عمارة بالمذهب الشيعى إلى محاكاة الشعراء الشيعيين القدامى وراح يردد ماقالوه فى المرحلة المبكرة من الصراع بين على ومعاوية ، ويشير إلى فكرة اغتصاب بنى أمية الخلافة من آل على . وهذه الفكرة راجت فى عصر كان الضرب على أوتارها يزلزل عرش الأمويين ، لكن هذا العرش كان قد عفى عليه الزمان فى عصر عمارة . ومع ذلك فانه يستوحى من تراث الفكر الشيعى هذه الأفكار :

وغدت تخالف فى الخلافة أهلها وتقابل البرهان بالبهتـــان
وقعودهم فى رتبـة نبويـة لم يبنها لهم أبو سفيان
فأتى زياد فى التقبيح زيادة تركت يزيد يزيد فى النقصان(٢)

وقد نظم الفاطميون الدعاة تنظيما خاصا وأشاروا إلى كل مرتبة من مراتبهم بمصطلح معين ، يجمع عمارة بعض هذه المصطلحات فى قوله للعاضد :

لما برزت غداة فطرك خاشعا وشعارك التكبـــير والتحميد
لينت قاسية القلـــوب بخطبة أصغى إليها المجمع المشهود
والوحى ينطق عن لسانك بالذى من دونه يصدع الجلمود
يوم جلت فيه الإمامة عزها ولها الملائكة الكرام جنود(٣)

ففى هذه الأبيات يتحدث عمارة عن خروج الإمام فى عيد الفطر ، وداعى الدعاة وهو « الوحى » فى تأويلهم الباطنى — وينطق عن لسان الإمام بالحجج القوية ، وقد التقى الدعاة (وهم الملائكة) جنود الإمام بالمجمع المشهود وهم أتباع المذهب الذين أعطوا البيعة والعهد للإمام .

---

(١) ديوان عمارة اليمنى ، ص ١٦٨ .
(٢) المرجع السابق ، ص ٣٦٣ .
(٣) المرجع السابق ، ص ١٩٨ .

وقد رمزوا إلى داعى الدعاة بعدة رموز وجعلوه وسيلة الوصول الى الإمام بل جعلوه باب الأبواب (١) ، وإلى هذا المعنى يشير الوزير طلائع ابن رزيك فى حديثه إلى عمارة :

قل للفقيه عمارة ياخير من ... أضحى يؤلف خطبة وخطابا
إقبل نصيحة من دعاك إلى الهدى ... قل حطة وادخل إلينا البابا(٢)

فهو يدعوه إلى الدخول فى المذهب ، وذلك عن طريق حضوره مجالس الدعوة والتقرب من داعى الدعاة .

ومن الرموز التى استخدمها عمارة للدلالة على (داعى الدعاة) رمز « كاف » فهو يخاطب الوزير طلائع قائلا :

كاف هو الباب الذى من لم يصل منه فليس له إليك وصول(٣)

وللمذهب الشيعى فلسفته المستمدة من أصول فلسفية متعددة ، وقد لاحظ الدكتور محمد كامل حسين أن عقائد الفاطميين مزيج من مذاهب وديانات عرفت وانتشرت فى الأقطار الإسلامية فأخذها الفاطميون وأعطوها الصبغة الإسلامية . يستطيع الباحث أن يتعقب أكثر عقائدهم ويردها إلى أصولها القديمة .فقد أخذ الإسماعيليون عن الأفلاطونية الحديثة الفيوضات ومراتبها (٤) . وجعلوها الحدود الروحانية والجسمانية ، قالوا بخلود النفس بعد الموت وعودتها إلى العالم الروحانى ، فإن كانت نفسا شريفة بأن كانت نفس حد من حدود الدين الجسمانية عادت إلى عالم الحدود الروحانية ، وأخذت مرتبتها بين الحدود الروحانية ، كما كانت مرتبتها بين الحدود الجسمانية .

---

(١) وقد استند الشيعة فى هذه القضية إلى فهم للحديث الشريف « أنا مدينة العلم وعلى بابها» .
(٢) النكت العصرية ، عمارة اليمنى ، ص ٤٥ .
(٣) فى أدب مصر الفاطمية ، ص ١٨٩ .
(٤) فى أدب مصر الفاطمية ، د . محمد كامل حسين ، ص ٣٦ .

وإلى هذه الفكرة يشير عمارة فى رثاء طلائع بن رزيك بقوله :

أحللت دار كرامـة لاتنقضى أبدا وحـل بقاتليه بوار (١)

أخذ الإسماعيليون عن العبرانيين والبابليين عقيدة الأدوار فقالوا بأن لكل نبى دوره وبأن النبى الذى بعده ينسخ شرع النبى قبله، فلما جاء دور محمد (صلى الله عليه وسلم) وهو خاتم الأنبياء جمع الله له كل أدوار الأنبياء قبله ، وأن ماحدث فى أدوار هؤلاء الأنبياء يحدث مثله فى دور محمد (صلى الله عليه وسلم) وماحدث لأوصيائهم يحدث لوصى محمد (صلى الله عليه وسلم) والأئمة من بعده ، وعمارة يتأثر بهذه الفكرة فى رثائه الصالح طلائع بن رزيك فيقول مشيرا إلى قصة ناقة سيدنا صالح والتى أولها الشيعة بأنها حجة صالح ، كما يشير إلى فكرة الأدوار فى قوله :

لاتعجبن لقدار ناقـة صالح فلكل عصر صالح وقـدار (٢)

فهو يقول أن الوزير ابن رزيك حجة الخليفة ، ولكل زمن خليفة وحجته

ونلحظ أبعاد التأثر بالمذهب الشيعى ناطقة فى شعر عمارة طاغية على ذاته وآرومته على الرغم من نفيه اعتناق المذهب .

ففى حديثه عن الفاطميين يستمد من عروبته هو، أو من عروبه الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) مقومات الفخر والمديح ، ثم لايلبث أن يعود إلى الدعوة الشيعية يرددها فى أسلوب أشبه بالاستدراك إذ يقول مادحا رزيك بن طلائع مهنئا بمصاهرة الخليفة :

أخالك لاترضى الكواكب معشرا وأنت لأبناء الخلافة خـال
ستفخر غسان بكم ويزيدها على أن آل المصطفى لك آل(٣)

---

(١) النكت العصرية ، عمارة اليمنى ، ص ٦٤

(٢) المرجع السابق ، ص ٦٤ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٥٩ .

فعمارة وهو يمدح الوزير الفاطمى بالحسب ، لم يحدثنا عن حسب الوزير رزيك ولا ذكر أجداده ، بل حدثنا عن عروبته هو أو عروبة الرسول (صلى الله عليه وسلم) ثم التفت إلى الحسب الشريف الذى ينتهى عنده الفاطميون ، وهو نسبهم إلى النبى (صلى الله عليه وسلم) فذكره صراحة لا ضمنا .

وتأخذ مظاهر التأثر فى شعر عمارة أشكالا متعددة ، فتارة يردد الفكرة الشيعية كاملة فى شعره مستخدماً فى معناها الحقيقى ، وقد تجلت أمثلة ذلك من خلال حديثه عن الخلفاء وأتباعهم ، وتارة أخرى يستخدم الفكرة الشيعية رمزا أو إيحاء فى معانى أخر . من ذلك مثلا ما قاله مخاطبا أحد الأمراء قد بعث إليه بخمس «منتخبات»* فود الشاعر لو أنها كانت عشرا فقال :

قل للخطير الذى مكارمه ... قد عظمت فى زمانه خطره
ليت نداه فى حق خادمه ... دان يحب الصحابة العشرة
تشيع فى السماح يبغضه ... كل محب لخمسة البررة

وفى المناسبة ذاتها يقول :

أبى حب الصحابة فى الهدايا ... ودان بحب أصحاب الكساء
تشيع جود كفك فى الهدايا ... وعهدى بالتشيع فى الولاء

والشاعر هنا يعتب على ممدوحه قلة العطاء ، لأنه بعث إليه خمس «منتخبات» فقط فرمز إلى العدد « خمسة» بذكر أصحاب المذهب الإسماعيلى(١)

(*) نوع من الملابس الفاخرة فى ذلك العصر .

(١) الأئمة المتفق عليهم عند الامامية هم (الحسن — الحسين — زين العابدين — محمد الباقر — جعفر الصادق) ، لم يعتبروا عليا منهم لأنه وصى ، والوصاية درجة أقل من النبوة ، وأعلى من الأمامة .

أنظر : فى أدب مصر الفاطمية ، د. محمد كامل حسين ، ص ٢٢ .
أصول الاسماعيلية .

وباللاوعى يتأثر عمارة بالمذهب الشيعى فى مديحه خصوم المذهب ، ولا شك أنه كان حريصا على نوال رضاهم ، ولا شك أيضا أنه يعلم أن ولاءه لمذهب الشيعة لم يحقق له الرضا المنشود،ومع ذلك فلم يستطع التخلى عن ذلك التيار الذى اصطبغت به بيئة الشاعر ، ولم يفلح فى تبديل منهجه الشعرى غداة تبدل البيئة السياسية والمذهبية ، فعلى الرغم من محاولة التقرب إلى الأيوبيين وحرصه الشديد على نفى التشيع عن نفسه إذ يقول :

حتى كأن بنى أيوب ما علموا بأننى فى زمانى أفصح العرب
خافوا على ولا رأيى بمنحرف عن الوداد ولا قلبى بمنقلب (١)

تراه يمدحهم بالقيم التى امتدح بها أعداءهم ، وهى قيم استوحاها من التأثر العام بالمذهب الشيعى ، وكأنها أصبحت قيما فنية جمالية ترد فى الشعر بغض النظر عمن يوصفون بها ، فهو يخاطب نجم الدين الأيوبى قائلا :

أصنيعة الطهر الإمام أنعم وأصغ إلى كلامى

فصفة (الطهر) و (الإمامة) من الصفات التى تعود الشعراء وصف الفاطميين بها ورددوها كثيرا ، حقا إنها صفات لا تخصهم دون غيرهم ، ولكن العلاقة بين هاتين الصفتين وما يقول به الفاطميون أوثق من أى صفات أخرى كثر المديح بها فى الشعر العربى :

وفى موقف آخر يقول :

صلى الإله على نجم أضاء لنا من نسله النيران الشمس والقمر(٢)

وصلاة الاله من العبارات التى رددها الشيعة عند ذكر أئمتهم ، والشمس والقمر رمزان لهما دلالتهما فى المذهب الشيعى أيضا .

---

(١) ديوان عمارة اليمنى ، ص ٨٧٩ ، ١٨٠

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٦٩ .

ولا يفوت عمارة وهو يرثى نجم الدين الأيوبى أن يذكر قصة الوراثة إذا يقول :

فمن ناصريه عزه وتقيه وسيفاه منهم والصلاح وفخره
أولئك أهل الحل والعقد ينتهى إلى أمرهم طى الزمان ونشره(١)

ونراه باللاوعى أيضا مشدودا إلى التلذذ بذكر الحسن والحسين ، يسوق ذكرهما فى معرض المقارنة والتشبيه الضمنى وهو يتحدث إلى الأيوبيين إذ يقول :

هما أخوا أيوب والملك الذى أتى بهما تلوا له وهو يكره
وما حسن فرق الحسين وإنما تأخر عنه فى الولادة عصره(٢)

من خلال تلك النماذج — وغيرها كثير فى شعر عمارة — نرى صورة واضحة لتأثره بالمذهب الشيعى بأبعاده المختلفة من عقائد وشرائع ونظم وتجلت فى شتى مقومات شعره الفنية شكلا ومضمونا .

(٥)

وبين الاعتناق والتأثير أقف قليلا مع الشاعر عمارة اليمنى ، لأتبين حقيقة موقفه من رفض اعتناق المذهب وتأثره البين به ، وما دوافع ذلك — وبماذا نفسره ؟؟

مما سبق عرضه يتضح لنا أن الموقف المتميع الذى وقفه الشاعر فى هذه القضية جعل دارسى أدبه يضطربون فى تحديد شخصيته المذهبية ، فبينما يصفه الدكتور أحمد بدوى بأنه شافعى متعصب شديد التعصب لأهل السنة (٣) ، اعتبره الأستاذ أحمد أمين آخر شعراء الشيعة فى مصر (٤) . ويقول عنه المستشرق

(١) ديوان عمارة اليمنى ، ص ٢٦٠
(٢) المرجع السابق ، ص ٢٦٠ ، ٢٦١
(٣) الحياة الأدبية فى عصر الحروب الصليبية ، د. أحمد بدوى ، القاهرة ، ١٩٧٢ ، ص ١٦٥
(٤) ظهر الإسلام ، أحمد أمين ، ج٤ ، ص ١٤١

الفرنسى « درنبرج» أن مؤرخى الشعر العربى فى القرن الثانى عشر لم يعتبروه من شعراء السياسة العنصرية (١) .

ومما يؤكد صفة التميع فى موقف الشاعر هنا أن التأثر لا يعنى الولاء للمذهب ، فقد يتأثر الشاعر بأفكار عصره تأثرا عكسيا وقد يتجلى التأثر واضحا بمناهضة أفكاره .

ومن هنا يبدو الشاعر إيجابى الموقف ، بل ربما فاق صراعه بهذا الأسلوب أساليب المناهضين السافرين . أما عمارة فولاؤه للمذهب الشيعى بين ، تشير إليه النماذج التى أشرنا إليها وتؤكده مقارنة مدائحه الفاطميين بمدائح الأيوبيين حيث تشيع فى الأولى روح دافئة تكاد تلمس فيها حرارة العواطف وصدق الشعور ، لا من خلال الحديث عن الفكرة أو ترديدها فحسب ، بل ومن خلال الجو الشعرى الذى يحلق فيه الشاعر من خلال الصور والألفاظ والمصطلحات ، وتشيع فى الثانية روح فاترة ملول (٢) .

وفى رأيى أن التكسب هو المبرر الوحيد لموقف عمارة هنا، فهو لم يعتنق المذهب الشيعى لأنه نشأ وشب فى بيئة سنية . وعندما جاء إلى مصر وجد مكانه بين الشعراء وكانوا كثرة كما يقول القلقشندى « فهم أهل سنة لايغلون فى المديح وشيعة يغلون فيه» (٣) . والخلفاء الفاطميون يستقطبون كل صاحب بوق ، ولنا أن نتصور أنه ربما كان عطاء الفاطميين وحرصهم على مودة من لم يعتنق المذهب أقوى ، كما نلجأ فى أساليب السياسة إلى ترضية المعارضة أو وضعهم موضع الاعتبار ، فلماذا إذن يعتنق الشاعر مذهب الشيعة ؟

H. Derenbourg, Oumara du Yeman savie et ron aevre. p. 13.

(٢) قارن ماقاله عمارة فى مديح الائمة بما قاله فى الأيوبيين ، ص ١٩٢ من الديوان ، وهذه المقارنة تذكرنا بموقف الشاعر عبيد الله بن قيس الرقيات بن مصعب بن الزبير والخليفة الأموى يزيد بن معاوية .

(٣) صبح الأعشى فى صناعة الانشا ، لأبى العباس أحمد بن على القلقشندى ، ج ٣ ، ص ٤٩٧

والحق أن الانسان لايقدم على تغيير مذهبه إلا تحت تأثير دوافع قوية وهذه الدوافع لم تتوفر بعد لعمارة ، فمذهب السنة قريب إلى النفوس لبساطته، والاعتزاز بالثبات على المذهب أدى إلى تقدير الآخرين وكسب ثقتهم ، ولعل هذا ما أراده الشاعر بصفة النخوة التى علل بها عدم دخوله المذهب الشيعى .

ور بما دفع حرص الشاعر على التكسب أن يغير مذهبه لو أن الفاطميين سلكوا غير هذه السلوك ، فقصروا عطاءهم على معتنقى مذهبهم من الشعراء دون غيرهم .

وبدافع التكسب استطاع عمارة أن يجمع النقيضين فى صفة واحدة هى الجود فعندما يستجدى الفاطميين يصف التشيع بالجود :

تشيع فى الســـماح يبغضـــه كل محب للخمسة البررة (١)

وعندما يستجدى الأيوبيين ينسب الجود إلى مذهبهم السنى :

مذاهبهم فى الجود مذهب سنة وإن خالفونى فى اعتناق التشيع (٢)

ثم نراه فى موقف الاستجداء يتذبذب بين المذهبين متضرعا بالتشيع حينا متمسحا فى مذهب السنة حينا آخر .

فها هو يخاطب الوزير شاور شاكيا من (الجارى) فيقول :

والدهر لايحمل عنك موضعى فانصر نصيرك فى التشيع (٣)

ويكتب إلى الناصر صلاح الدين شاكيا باكيا فيقول :

فإن كنت ترعى الناس للفقه وحده فمنه طرازى بل لثامى ويرقعى
ألم ترعنى للشافعى وأنتم أجل شفيع عند أعلى مشفع (٤)

---

(١) ديوان عمارة اليمنى ، ص ١٣٩ (٢) المرجع السابق ، ص ٢٨٨
(٣) المرجع السابق ، ص ٢٨٦ (٤) المرجع السابق ، ص ٢٨٩

ولاغرو أن ينبعث الولاء من التكسب ، فالتكسب ينمو بنمو الولاء وأسبابه متوفرة لعمارة فأفكار المذهب مطروحة في البيئة المصرية شيوعا فكريا فحسب أو شيوعا عقائديا وفكريا ثم هى بعد ذلك أصبحت قيما فنية أضيفت إلى رصيد الموروث الشعرى . .

ومن الولاء انطلقت عواطف الشاعر جياشة فى حديثه عن الفاطميين عاكسة تأثره الواضح بمذهبهم :

من الرصيد الشعرى تأثر باللاوعى فى حـــديثه عن الأيوبيين ، لكن عطاءهم لم يكن مثل عطاء الفاطميين ، فقل الولاء وفترت العواطف ، وليس بمستبعد على عمارة وقد خالط السياسة عن كثب وعرف كيف يحافظ على علاقته الودية بالوزراء على الرغم من تناحرهم أن يتوقع زوال دولة الفاطميين ، ومآل الأمر إلى الأيوبيين ، ولاسيما أن الأحداث — وهو قريب منها — كانت تجرى سريعة والشواهد ناطقة بذلك ، فظل متميعا حتى لايخسر .

وكثمرة من ثمرات إشباع رغبة التكسب جود عمارة فنه وصدقت عاطفته صدقا لم تشاهده عند شعراء المذهب الذين غرقوا فى اعتناقه ، وراحوا ينظمون قصائدهم فى أصوله وفروعه فجاءت نظما خاليا من الشعر(١) .

---

(١) من نماذج ذلك هذا الرجز الذى وضعه بعض الزيدية فى الرد على الاسماعيلية :

ها أنت تزعم الا معبـــــود لأن معبوداً بوزن موجـــــود

ووزن موجود كوزن معدود وكل معدود بجسم محدود ... الخ

راجع هذا النص فى كتاب : بيان مذهب الباطنية وبطلانه . منقول من كتاب قواعد عقائد آل محمد . تأليف محمد بن الحسن الديلمى . عنى بتصحيحه شد وطان — استابنول . مطبعة الدولة ، ١٩٣٨ . جمعية المستشرقين الألمانية .

وقد وصف الدكتور محمد كامل حسين شعر العقائد بأنه فى أكثره شعر صنعة لأن الشاعر كان يجهد نفسه فى أن يأتى فى شعره ببعض العقائد، وأن يلائم بين هذه العقائد والألفاظ التى يختارها لشعره ثم يوفق بين هذا كله وضرورات الشعر(١) .

وهذا الوصف لاينطبق على شعر عمارة ، لأنه ليس شعر عقائد، وإنما هو شعر تنعكس فيه آثار العقائد سواء فى التجربة الشعورية أو شكل الخلق الفنى ومضمونه فتزيد قوة وعمقا وحرارة .

دكتور/أحمد سيد محمد

---

(١) فى أدب مصر الفاطمية ، محمد كامل حسين ، ص ١٩٤

المصادر والمراجع

١ — أصول الاسماعيلية (بحث تاريخى فى نشأة الخلافة الفاطمية) ، د. برنارد لويس ترجمة خليل أحمد حلو، دار الكتاب العربى بمصر .

٢ — الأغانى—لأبى الفرج الأصفهانى، جـ١، القاهرة ط. كتاب التحرير .

٣ — بيان مذهب الباطنية وبطلانه منقول من كتاب قواعد آل محمد — تأليف محمد ابن الحسن الديلمى، استانبول . مطبعة الدولة ، ١٩٣٨

٤ — تاريخ مصر لابن ميسر ، القاهرة ، ١٩١٩

٥ — الحياة الأدبية فى عصر الحروب الصليبية بمصر والشام، أحمد بدوى، القاهرة سنة ١٩٥٢

٦ — جريدة القصر وجريدة العصر ، قسم شعراء مصر، للعماد الأصفهانى، تحقيق شوقى ضيف وآخرين ، ١٩٥١

٧ — ديوان عمارة اليمنى ، تحقيق : هرتويغ درنبرج ، باريس ١٨٩٧

٨ — السلوك لمعرفة دول الملوك ، للمقريزى ، تحقيق د . مصطفى زيادة، ١٩٥٧

٩ — صبح الأعشى فى صناعة الانشا ، لأبى العباس أحمد بن على القلقشندى .

١٠ — ظهر الإسلام ، أحمد أمين ، جـ ٤ ، ط ٣ ، القاهرة : مكتب النهضة المصرية .

١١ — فى أدب مصر الفاطمية ، د . محمد كامل حسين ، القاهرة ، ١٩٦٣

١٢ — كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية ، لأبى شامة المقدسى ، تحقيق : محمد حلمى أحمد ، القاهرة، ١٩٥٦

١٣ — كتاب النكت العصرية فى أخبار الوزراء المصرية ، عمارة اليمنى
تحقيق : هرتويغ درنبرغ .

١٤ — مسند أحمد بن حنبل ، ج ١ ، ج ٤ .

١٥ — معجم البلدان ، ياقوت الحموى .

١٦ — المواعظ والاعتبار فى ذكر الخظ والإنار ، للمقريزى .

١٧ — النجوم الزاهرة فى أخبار مصر والقاهرة ، لابن تغربردى .

١٨— H.Daranborg:Oumar Du Yémen,Sa Vie et Son aeuvres ,Paris 1897

١٩— Le Petit Robert Paris, 1972.